كانت غافية كالملاك

عايدة الجوهري

منذ اشتعال الحرب وامتهان القتل هيمن هاجسُ الموت على أم نمر. كانت تولول وتتفجع كلما سمعتْ نعياً أو التقطتْ خبراً عن محصّلة المعارك والتفجيرات وأعمال الخطف. كان يؤسفها أن تحوّل الحربُ الموتَ إلى حدثٍ عاديّ، متوقّع في كلّ لحظة، بل ومرغوب. وكانت تعبّر عن احتجاجها على المُوت بحضور المآتم القريبة والبعيدة، إلا في حالات المرض الشديد أو القصف الأهوج، وتحثّ كلّ نساء الحيّ على المشاركة والمواساة وتقدّم لهنّ في كلّ مرةٍ نبذةً عن حياة الميت.

لا يكسر رتابةَ صباحاتها سوى صوت الناعي. وما إن تسمع حشرجة الميكرفون والصوتَ التجريبيّ «ألو، ألو» حتى تترك كلّ شيء وتسرع مهرْولةً نحو مصدر الصوت. تقترب من النافذة، تزيح الستارة، وتمدّ رأسها خارج النافذة، وإذا كان الطقس معتدلاً تخرج إلى الشرفة مخافةَ أن تتوه منها ذبذباتُ صوت الناعي ويفوتَها حرفٌ مفيد. تروح تصغي بشغف فائق، وتظلّ مرتابةً حتى يبدأ الناعي بعبارة: «إنّا لله وإنّا اليه راجعون». حينها تطمئنّ إلى أنّ الإعلان جنائزيّ ولا يبغي الإعلانَ عن بدء الدروس في المدرسة الرسمية أو في المدرسة الخاصة المتواضعة أو عن قدوم أحد الأطباء إلى المركز الصحيّ الذي لا يصلح حتى لإعطاء الحقن، أو للإعلان عن نشاط اجتماعي يفتعله شبّانُ الضيعة للاجتماع بفتياتٍ لا يكفيهم استراقُ النظر إلى وجوههنّ وهنّ غاديات إلى المدرسة أو الجامعة أو إلى مخازن القرية النادرة.

تحرص ألا تفوتَها لفظةٌ. تحفظ اسمَ الميت، وشهرتَهُ، واسمَ أبيه (أن ذُكِر) وموعدَ دفنه ومكانه. ولاستكمال معرفتها بالميت تروح تطرح أسئلةً إضافيةً على زوجها، أو على النساء التقيّات مثلها، حول أصله وفصله وأسباب وفاته ومصير عائلته إنْ كان شاباً أو شابة.

بهذا النعي تستفتح أم نمر نهارَها، ولا تعود تشغلها مسألةُ ملء أوقات فراغها، وتشعر أنها في حلٍّ من التزاماتها العائلية، فلا يتوقع أحدٌ منها طبخاً أو غسلاً أو كيّاً.

بعد أن تتأكد من جهوزية لباسها: نظافة فستانها الأسود الحريري أو حسن كيّه، تتفحص منديلها الأبيض، فتتأكد من نقائه. وهذا المنديل، التي تزينه رسومٌ مطرزة باليد، كانت قد خاطته في قرية مجاورة، واستمرّ تجهيزُهُ أياماً، وهي تعرف ضمناً أنه يُكسبها وقاراً استثنائياً، وسحراً لا تصارح نفسها به دوماً.

تتقدم أمُّ نمر وفدَ النساء المعزّيات، وتبادر إلى رثاء الميت وتعداد صفاته. فإذا كان الميتُ ذكراً، بكتْ شجاعته وكرمه وحنانَه وزوجتَه وأولادَه وأمّه وأباه ومعارفه. وإذا كان الميت أنثى بكت أولادَها وأمها وأباها. وإذا كان طفلاً بكت براءته وحزنَ أهله.

في كل مرة تعود منهكةً إلى منزلها ولا تلبث أن تتذكر ـ ولأيامٍ طوالٍ ـ تفاصيلَ الجنازة والوفاة، فلا تبارح حزنَها إلا من أجل حزنٍ آخر. وكانت طقوسُ الحزن تكسبها سلطةً استثنائيةً، فلا يجرؤ أحدٌ من أفراد عائلتها على معاندتها أو إزعاجها إن انتابتها كآبةُ الماتم.

لا تُرْبكها سوى ميتاتِ القتل. لا تعود تعرف إذا كانت تجوز المواساةُ أم لا، إذا كان يصحّ الحزن أم لا، مع أنها اعتادت كلما ذهبتْ إلى ماتم أن تتفجع وتتحسّر وترثي وتمتدح. فإذا كانت الضحيةُ ذكراً اعتبرتْ أنّ المسألة شائكة، وأنّ الألم يتعدى المواساة، وأنّ أهل القتيل لا بدّ أن يكونوا في ذروة الاهتياج. وإذا كانت الضحية أنثى، تريثتْ، واستفسرتْ، وجمعتِ المعلومات. لا شيء يزيل التباسها، خصوصاً إذا كان أهلُ القاتل هم أهلَ القتيلة في آن. وقد عهدَتِ الموتَ حالاً قهرية، ولم تألف بعدُ الاشتراكَ في الميتات الاختيارية.

تتردد عموماً في تعزية الأمهات اللواتي قُتلتْ بناتُهنّ أو انتحرن. فتروح تستقصي عن ردود فعل الأم، عن حزنها أو حيادها، عن أمهاتٍ لا يبكين وعن أخريات يبكين في السرّ أثناء غسل الصحون أو قبل النوم في الأسرّة. وحين سمعتْ عن أبٍ قتل ابنته ترددتْ كعادتها وراحت تجمع المعلومات التي كانت تصلها دوماً منقوصةً. إلى أن قرأ ابنُها الخبرَ في إحدى زوايا الصحف اليومية وتلاه عليها:

«قتل ج.م. ابنتَه ج. غسلاً للعار. فالأب المحافظ لم يستطع استيعاب الصدمة حين علم بعلاقة ابنته بالشاب ح. خ.، فاقدم على قتلها في منزله في كفر عار. وفي المعلومات أنّ ج.، وعمرُها حوالى ثمانية عشرة عاماً، أُغرمتْ بالشاب الذي كان يوصلها يومياً إلى مقرّ عملها، واقامتْ علاقةً غرامية معه استمرتْ شهوراً. ثم افتُضحَ امرُها، فاستشاط والدُها غضباً وصمّم على قتلها، ونفّذ مخططه بان اطلق إحدى عشرة رصاصةً من رشّاشٍ حربيٍّ اصابت ابنته التي كانت نائمة في مختلف انحاء جسدها».

وراح ابنها يتلو عليها أخبارَ جرائم شرفٍ أخرى، ولكنّ التطابق بين اسم القرية «كفر عار» والاسمِ المذكور جعلها تتأكد من الخبر.

حملتْ أم نمر معلوماتها وطافت في الحيّ تبادلها بأخرى. فعلمتْ أنّ والد الفتاة مزارع بسيط قلّما خرج من ضيعته، ولا يحسن تسويق بضاعته، ينتظر المارّة النادرين على طريق ضيعته المنعزلة، وأنّ له عشرة أولاد لم يكملوا تعليمهم وقلّما يجدون عملاً. وعلمتْ أنه قتل ابنته وصاح: «لقد قتلتُ أفعى. لا شيء. أُخرجوا! لقد قتلتُ أفعى». وسلّم نفسه إلى الشرطة.

كما علمتْ أنّ أم القتيلة لم تذرفْ دمعةً وأنها لا تستقبل أحداً، وأنّ أخواتها واجمات صامتات كحارسات القبور. وقيل لها إنّ القتيلة صبية جميلة كقلب النهار، وأنها أُغرمتْ ذات يوم.

في اليوم التالي علمتْ أم نمر أنّ النساء الراغبات في التعزية سيقصدن منزل أخت القتيلة؛ وكانت هذه الأخت متزوجة وقد غادرت بيت والدها لحظةَ موت أختها ولم تعد. فترأستْ أم نمر وفدَ النساء وذهبتْ بسريةٍ تامّةٍ إلى الأخت المتزوجة.

كانت الأخت شاحبةً مذهولةً تروّض غضبها بالمهدّئات.

تتحدث عن أختها دون توقف، فتروي الحادثة لكلِ زائرٍ عدةَ مرات بلهجة هذيانية:

كانت غافيةً. قتلها. أفرغ اثنتي عشرة رصاصةً على كامل جسدها. قتلها يوم عيد الأضحى، بعد وجبة عشاء دسمة. كانت غافية، مرهقة بعد نهار عملٍ طويل في أحد المعامل، لا يسمح لها ربُ العمل بالجلوس، وإنْ جلستْ حسم لها جزءاً من معاشها. كانت مرهقة. نامت. قتلها.

كانت تجلس إلى المقعد الخلفيّ، وهو ينظر إليها في المرآة. وفي كل مرة يتأكد أنّ المرآة لا تخونه، تنظر إلى المرآة وإلى النافذة. تهرب من نظراته النارية. ذات مرة طلب إليها أن تجلس على المقعد الأماميّ. أذعنتْ، دون تفكير. مشت إلى المقعد الأمامي كمن يمشي إلى حلمٍ، والخدر اللذيذ لا يبارحها. لم تقو على النظر في عينيه. يصلها صوتُه كنغمٍ أسطوريّ. تنظر إلى النافذة هرباً من نظرته وصوته ولهاثه ورائحة جسده...

مذهولةً عادتْ إلى البيت. لا تفهم تماماً ما حدث لها. أحستْ فقط أنّ شيئاً ما تبدّل في حياتها. لم تعد أمُّها هي هي. لم يعد أبوها يشبه نفسه. لم تعد هي نفسها. صارت فتاةً أخرى تبتسم بدون سبب، توافقُ بدون سبب، تلبّي طلباتنا بدون سبب. تغني. ترقص. ولا حاجة بها إلى الموسيقى ولا الكلمات. تنظر إلى نفسها في المرآة كلما جالت في البيت، تغني، ترقص، وتبتسم.

أطلق الرصاص عليها وهي غافية كالملاك. لم يلحظ التماعَ عينيْها؛ لم ير الابتسامة التي نسيتها على وجهها. كانت مستلقية على فراش في وسط الغرفة دون غطاء. غَفَتْ. منذ علم والدي بحكايتها وهي تصمت، تخاف أن تنظر إلى وجهه، تخاف أن تشي عيناها بعشقها. كانت تجلس في زاوية الغرفة كمن يختبئ في ظله. أو تنام، تظن أنه ينساها إذا نامت.

لم يسمع الجيرانُ استغاثتَها، ولا نحن. ابتلعتْ استغاثتَها القريةُ. ابتلعتها الغابةُ. جرَفَها النهرُ.

منذ انتهى اجتماعهُ السّريُّ بأعمامي وهو لم ينطق بكلمة واحدة، ينظر في وجه كل واحد ويتجهّم. ابتسامته قليلة عموماً. منذ الاجتماع السريّ، وهو جالس على الشرفة ينظر إلى سفح الجبل. يدخّن، ويهزّ برجليه، وينظر إلى سفح الجبل.

تركها تنام، وراح يلتهم بشهيةٍ نادرةٍ طعامَ العشاء. ينظر إلينا جميعاً بكراهية ونفور. فجأة ترك طاولة الطعام ودخل إلى غرفة النوم. سمعنا حفيفَ باب الخزانة تلك التي ورثها عن جدي. تلته طلقاتٌ نارية. ظنّنا أنه احتفال بعيد الأضحى. فجأةً ظهر والدي وقد تقزززتْ عيناه. ودون أن يرمش له جفن قال: «قتلتُها، قتلتُ الأفعى. دافعتُ عن شرف العائلة. شرفي وشرفكم. هاتوا لي الشرطة! الشرطة! الشرطة!»..

لا أدري إذا كان قد أحبها يوماً، أو أحبّنا. كان يخشى أن يحبّنا. يبتدع في كل مرةٍ كُرْهنا. وإذا أحبنا قليلاً عاقبنا أكثر. كان يخاف إنْ تكلمنا. يطلب إلينا أن نتكلم بصوتٍ خفيض. ألاّ نتوسّع في الكلام. تربكه الجملُ الكاملة. تربكه أصواتنا. يخشانا إنْ نضحك أو نحزن. يخشى انفعالاتنا. تربكه. يخشى مصدرَها.

أرسلنا إلى المدرسة دون اقتناع كامل. ربما ليتخلّص من وجودنا. كان يكره دفاترنا وكتبنا وأقلامنا. خصوصاً أقلامنا. كان يكره أسماءَ رفاقنا ومعلمينا وأبطالَ القصص التي نقرأ.

قبل أن تضيء الشمسُ البيوتَ، وقبل أن تأوي الذئاب إلى أوكارها، ناداها فنظرتْ إليه كما تنظر إليه في كل مرةٍ حين يوقظها لتذهب إلى معمل الدباغة. نظرتْ إليه بحنان. فأطلق النار على عينيها وفمها وعنقها وكاملِ جسدها. لم يشأ أن يتركها تموت خلسةً، دون أن تشهد موتها، دون أن تراه يقتلها، دون أن تعرف أنّ الحب لا يمرّ بدون عقاب.

لا أدري أين ذهبوا بها. خشي رجالُ القرية أن تنشر العارَ في الهواء. حاصروها. منعوا الطبيبَ والدركيَّ من دخول البيت. قالوا إنه شأن داخليّ خاصّ. تجمهروا حول المنزل. كانوا سداً منيعاً. قالوا: «بوركتَ، لقد غسلتَ العارَ. سندافع عنك، لن تبقى طويلاً مقيّداً. لا تخفْ!».

لا أدري أين ذهبوا بها. ربما رموها في نهر القرية، أو دفنوها في الكهف، أو رموها من أعلى الجبل.

كان دائم التربص بنا، ينتظر هفواتنا، يصطادها، وكنا ننتظر الإعلانَ عن موتنا...

لقد قتلها وهي غافيةٌ كالملاك.

صيدا

اقرأ في العدد القادم:

حوارات مع روائيين لبنانيين: اميلي نصرالله

(أجرى الحوار: يسري الأمير)